

دروس حياة قيّمة من الشيخ المبارك أثناسيوس الغريغوريي نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

مدخل للأب بيتر هيرز

القديسون هم رجال ونساء يجسّدون كمال الحياة المسيحية من خلال القداسة والفضيلة التي يجب أن نسعى إلى الاقتداء بها. ما يلي مأخوذ من السيرة المباركة والرؤيوية للشيخ أثناسيوس من دير غريغوريو (جبل آتوس). نجد ثلاثة دروس قيمة في الحياة نحتاج إلى سماعها وتنفيذها خلال هذه الأيام التي سقط فيها العديد من المسيحيين الأرثوذكس، كهنة وعلمانيين على حد سواء، فريسة للخوف المتأثر بالشيطنانية والعقلانية الدهرية إلى حد التشكيك في قوة الأشياء المقدسة واستبدال التقاليد المقدسة بابتكارات تجديفية. كما نرى في حياة الرائي المبارك الشيخ أثناسيوس الغريغوريي، نتعلم ثلاثة دروس قيمة في الحياة:

(١) عندما نواجه خطرًا، يجب أن نركض إلى الله وقديسيه أولاً بإيمان وثقة لا يتزعزعان طلباً للمساعدة والقوة والحماية؛

(٢) عندما نمرض، يجب أن نسعى أولاً وقبل كل شيء بحماس إلى الشفاء الذي يقدمه لنا المسيح في مستشفى هيكله المقدس من خلال علاج الأسرار المقدسة والأشياء المقدسة كالرفات والأيقونات لأنها قنوات للشفاء والغذاء الذي نحتاجه؛

(٣) عندما يسعى الناس إلى تقويض إيماننا ومهاجمته واضطهاده أو محاولة إدخال ابتكارات ضد المسيحية، خاصةً عندما تكون كفرية وتشكك بقوة الأشياء المقدسة، يجب أن نكون مستعدين للدفاع عن الإيمان وللتضحية بأي شيء من أجل الحقيقة وفي النهاية لخلاصنا، حتى لو كان هذا يعني المعاناة من السجن والغرامات وفقدان الوظائف وما إلى ذلك. غالبًا ما يكون ثمن طاعتنا للمسيح باهظاً في هذه الحياة الباطلة، على الرغم من وجوب أن نشعر بالراحة في معرفة أن ولاءنا للمسيح لا يرفعنا وحسب إلى المساكن السماوية التي وصل إليها القديسون، بل أيضاً أن أي معاناة أرضية لا تقارن ببركات الحياة الأبدية المجيدة، إذا ما بقينا أمناء حتى النهاية.

(١) سرب الجراد بمواجهة القديسين

"في قرية فولتيسا، الواقعة في منطقة بييريا الساحلية شرق فيريا، كان لدير غريغوريو أنطش اشتراه في عام ١٨٥٧ من بيك تركي. ذات مرة، طلب الوكيل، وهو في غاية الاستياء، المساعدة من الدير بأن

يرسلوا إليه كاهنًا ورعًا ورفات مقدسة. إذ إن تلك المنطقة المنبسطة من البلاد ضربها شر رهيب هو جيوش لا حصر لها من الجراد تنشر الدمار وتهدد بتدمير كل شيء على مرمى النظر. قرر مجلس الدير إرسال المساعدة على الفور. أعدت الرفات المقدسة، ومن بينها ذخائر الشهيدة أنستاسيا الرومية. لم يكن لدى الدير كاهن راهب يرسله يفوق الأب أثناسيوس بالتقوى. وهو، إذ هو معتاد على الطاعة، عمل مطانية للأب الرئيس، وصلّى، وحصل على بركات الآباء، وانطلق لخوض معركة ضد الكارثة الطبيعية في القرية.

عندما وصل الأب أثناسيوس إلى فولتيسا، تألم بشدة من الكارثة، حيث رأى الضرر الذي يلحقه سرب الجراد. بألم واضح، كان القرويون يتوسلون إلى الله أن يرحمهم إذ لم يكن لديهم أمل آخر. رحّبوا بفرح بالمعونة الآتية من الدير، وقبّلوا بحرارة الرفات المقدسة ويد الأب الراهب الآتي من الجبل المقدّس، والذي أثار فيهم إعجاباً كبيراً. توسلوا بدموع: "أبونا، صلّ إلى الله أن يعمل معجزة".

لم يكن الوضع يسمح بأي تأخير. متسلّحاً بقوة إيمانه، ارتدى الأب أثناسيوس بطرشيته [*] وبدأ يرش بالماء المقدس. معه كان القديسون الذين يحمل ذخائرهم يصلّون. في حياته، أظهر الشيخ مرات كثيرة طاعة لله، أفلا يكون الله مستجيباً لتضرعاته الجادة؟ [**] في الصمت المهلك الذي ساد جموع المسيحيين المنكوبين، كان صوت الأب الجليل أثناسيوس الصامد يُسمع بوضوح:

«لا تلعنوا الأرض، ولا الكرم ولا البستان، ولا الشجرة المثمرة أو غير المثمرة، أو الورقة الخضراء... لكن اذهبوا بعيداً، انطلقوا من الأرض.»

وفيما كان القرويون يرسمون إشارة الصليب بتكرار، سار الأب أثناسيوس إلى الحقول حاملاً الرفات المقدسة بين يديه. كان الناس في حالة من العذاب والترقّب. كانت هذه المساعدة من جبل آثوس أم لهم الأخير. هل سينجح هذا الكاهن بفعل أي شيء بقديسيه وصلواته؟ لكن ذلك لم يحدث قبل أن يتحوّل يأسهم إلى فرح عظيم.

فيما تابع الأب أثناسيوس السير في الحقول مع الرفات المقدسة، بدأ سرب الجراد، كما لو أن قوة ما غير مرئية تضربه، في المغادرة والطيران بعيداً. بعد ذلك بوقت قصير، لم يعد ممكناً تمييز البحر المحيط بهم إذ تناثرت فيه ملايين الجراد الغارقة. لقد أنقذت المنطقة من هذا الوباء الرهيب. لم ترّ المنطقة قط مثل هذا الابتهاج ودموع الفرحة وتقبيل الأيدي بعد ذلك.

ما حدث بعد بضعة أيام في ميناء دير غريغوريو يفوق كل الوصف. في موكب رائع بالبخور والرايات والمراوح، استقبل الآباء الأب أثناسيوس بعاطفة غير مسبوقة. لقد استقبلوه كممثل قائد روماني عاد منتصراً إلى روما بعد هزيمة البرابرة".

٢) رفات القديسين كمسالك للشفاء

"حامية أخرى للدير هي القديسة الشهيدة في العذارى أنستاسيا الرومية، التي استشهدت في القرن الثالث على يد داكوس بعد تعذيب رهيب. في الجهة الغربية من الفناء الخارجي توجد كنيسة صغيرة مخصصة لإسمها. يحتفظ الدير ببقايا من رفاتها المقدسة، بما في ذلك أجزاء من جلدها كانت تفيض الطيب مع مرور الوقت. كما يوجد وعاء خاص يحتوي على آثار من دمها المسفوك وقت استشهادها. تهتم القديسة أنستاسيا بشكل خاص بصحة الآباء، ولهذا السبب يطلقون عليها اسم "الطبيبة". ليس من السهل تعداد كل الحالات التي تحرر فيها الرهبان من المرض بقوتها العجائبية. كانت هناك فترات لا تعمل فيها عيادة الدير شيئاً، إذ إن من يمرض يسجد أمام رفات القديس أنستاسيا، فيشفى على الفور... شفاعة القديسين! كلما فكّر المرء أكثر في هذا الواقع، زاد تعجبه. لقد خصص الله الصالح لمختلف مؤسسات الكنيسة "آلهة صغاراً"، إذا كان هذا التعبير مسموحاً به. كم يجب أن يشعر الإنسان بالسعادة إذ تغطيه أجنحتهم القوية! يجب على المرء أن يسهر ويصلي للحفاظ على أفضل علاقة ممكنة معهم".

٣) محبته واحترامه للتقليد المقدس

"في فترة رئاسته للدير، واجه الأب أثناسيوس عدة مرات مشاكل وصعوبات مختلفة. في سنواته الأولى كان منهكاً بسبب مسألة التقويم. لم يكن لديه أي رغبة في مواءمة الدير مع ما تحاول روح الحداثة فرضه عليهم.

كان موقفه يذكر برهبان الستوديون: 'يجب علينا'، كما قال، 'أن نبقي ركائز ثابتة لتقاليد آبائنا القديمة ونظهر كجنود شجعان للمسيح، ولا نقول «الأساقفة والبطاركة يقولون لنا!» ماذا يقول لنا الرسول بولس فم المسيح؟" حتى لو نزل الملائكة من السماء وكرزوا بإنجيل آخر، فلا تسمعوا لهم" (راجع غلاطية ١: ٨) ...

خلال فترة رئاسته التزم بعناية بالمبادئ التي وضعها للدير رؤساء الدير السابقون. وأعرب عن اعتقاده أنه كلما اقتربنا من تقليد الآباء في أسلوب حياتهم، نتمكن من تحقيق نهايتهم الناجحة. انحراف واحد عن التقليد يمكن أن يؤدي، خاصة بدون سبب جدي، إلى انحراف آخر. والثاني يقبل الثالث بسهولة، والشر يستمر ... "

Sources:

Archimandrite Cherubim, Contemporary Ascetics of Mount Athos Volume 1, pgs. 112, 114-115, 129-130, 131, 133-134.

* لنورد هذه الملاحظة: لقد اعتبر الأب أثناسيوس الكهنوت بمثل هذه التقوى والخوف لدرجة أنه عندما أصبح لاحقاً رئيساً للرهبان وقام بسيامة حوالي سبع وعشرين راهباً، لم يجرؤ أبداً على السماح لأي شخص بالتقدم إلى الهيكل المقدس. كان دائماً يتذكر قوله: 'مع المسبحة في الجنة خير من مع البطرشيل في الجحيم' (ص ١١٢).

** "تنحني الجنة بسهولة نحو هذه النفوس، والحجب بين هذا العالم والآخر تنفصل بسهولة." (ص ١٣١)